ديوان البريد المملوكي في بلاد الشام 659هـ - 803هـ / 1261م - 1401م

ماهر عبد الغني فرخ

القلمون، طرابلس، لبنان الشمالي، لبنان

الملخص

يشتمل البحث على مقدمة، تتناول تطور البريد لغوياً وجغرافياً، حتى زمن المماليك.

ويهتم بالدوافع التي حدت بالمماليك العناية بديوان البريد، وبخاصة في الشام، وإلى إنفاقهم الأموال الطائلة عليه، وأدت إلى تحوله في أيامهم إلى ديوان متكامل يجمع بين مصر والشام، ويتمتع بالانتظام.

ثم يستعرض أنواع البريد بالشام، ومراكزه وخطوطه وموظفيه ومهامهم، فطريقة عمل الديوان، وأهميته في نقل المراسلات الرسمية للدولة، وفي خدمتها وتيسير جميع شؤونها، مع شرح للاستعمالات المتعددة لأنواعه المذكورة.

ثم يتناول اهتمامات سلاطين المماليك بالديوان وبتأمين مستلزماته، وصولاً إلى مصادر تمويله.

مقدّمة

البريد في اللغة، يُراد به مسافة معلومة تقدّر باثني عشر ميلاً في البادية، وستة أميال في الشام وخراسان. وقد قدّره علماء المسالك والممالك بأربعة فراسخ[1]. وتُطلق هذه الكلمة أيضاً على نظام نقل الأخبار والرسائل، كما تطلق على حامل الرسائل[2]. أمّا أصل الكلمة فيشير كل من القلقشندي[3] والمقريزي[4] إلى أنّ بعضهم أرجعها إلى أصول عربيّة، وبعضهم إلى أصول فارسيّة معرّبة[5].

ونظام البريد من الأنظمة التي عُرفت قبل المماليك بفترة طويلة؛ إذ يذكر سوفاجيه (Sauvaget) أنّ خيل البريد عُرف أيّام الإمبراطوريّة الرومانيّة والبيزنطيّة[6]. ومع الدولة الإسلاميّة كان أوّل من أسسه الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان[7]، ثمّ استمرّ مع العبّاسيين والفاطميين والسلاجقة والزنكيين والأيّوبيين[8].

ولمّا دانت مصر والشام لحكم سلطنة المماليك وتحديداً مع دولة الظاهر بيبرس[9]، رتّب هذا السلطان خدمة بريديّة منتظمة[10]، وأنفق على ديوان البريد في دولته الأموال الطائلة؛ بحيث أصبح هذ الديوان مثلاً بارزاً لِما وصل إليه البريد في الدولة الإسلامية في العصور الوسطى[11].

دوافع اهتمام المماليك بالبريد وما استجد عليه في أيامهم

قبل البدء بالحديث عن ديوان البريد المملوكي بالشام، تجدر الإشارة إلى أنه قد يجول في ذهن المرء تساؤلٌ: ما الأسباب التي دفعت المماليك – وعلى رأسهم السلطان الظاهر بيبرس البندقداري – للاهتمام الزائد بديوان البريد، وبخاصة الشامية منها، ولإنفاقه الأموال الطائلة عليها؟ عن هذا التساؤل يمكن القول بأنّ هذا السلطان قد أسهم في تشييد مملكة مترامية الأطراف، وكان على صراع مستمر من جهةٍ مع المغول، الذين كان لهم أطماع متجدّدة بالشام، ويسعون كلما سنحت الفرصة لاجتياحه، ومن جهة أخرى مع الفرنج الذين كانوا لا يزالون يحتلون قسماً كبيراً من سواحل الشام. لذلك عمد للاهتمام الزائد بالبريد – وهو ما سيتم تفصيله لاحقاً – كي يتمكن أولاً من ضبط أمور سلطنته

الواسعة، وثانياً بُغية أن تصل إليه الأخبار بسرعة وباستمرار عمّا يحصل عند المغول والفرنج، وبما يجدّ من أنباءٍ عن سير المعارك التي كانت تحصل بين عسكر المماليك وأعدائهم. وليس أدلّ على ذلك من الوصية التي أوصى بها هذا السلطان لكاتب سره بدمشق الصاحب شرف الدين عبد الوهاب[12]؛ بصفته المشرف على أعمال ديوان البريد بالشام: "إن قَدِرْتَ أن لا تُبَيِّتَني كلّ ليلة إلّا على خبر، ولا تُصبحني إلّا على خبر فافعل[13]".

وقد يتبادر إلى الذهن تساؤل آخر: ألم يكن البريد موجوداً في البلاد الشامية قبل المماليك بفترة طويلة، وأنّ بعض الخلفاء الفاطميين استعملوه حتى لرفاهيتهم، كما حصل مع العزيز بالله[14] الذي اشتهى أكل قراصيا الشام، فطلبه من وزيره يعقوب بن كلس[15]، فألزم الوزير الحمام الرسائلي المخصص لعملية الربط الجوي بين مصر والشام بنقل حبوب القراصيا؛ وذلك بتحميل كلّ حمامة حبة من حبات القراصيا على جناحها[16]. كما أنّ الأتابكة الزنكيين والأيوبيين أعدّوا لخيل البريد بالشام "النُجُب المنتخبة[17]". فما الذي أحدثه المماليك إضافة لما فعله من سبقهم في مجال الخدمات البريدية؟

وجواباً على ذلك يمكن القول أيضاً: صحيح أنّ البريد كان موجوداً عند من سبق المماليك من الدول والشعوب التي حكمت البلاد الشامية، لكن ما تميز به المماليك عن غيرهم، هو تحويلهم البريد من ديوان مفكّك منذ ثلاث مئة سنة، وأقاموا عوضها ديوناً متكاملاً يضم مصر والشام، ويتمتّع بالدقة والانتظام والترتيب[18]؛ سواءً في دواوينه وأجهزته الإدارية والوظيفية، أم في دوره السياسي والإداري والأمني والاجتماعي، وأهمية هذا الدور بالنسبة لبلاد الشام ولمجمل دولة المماليك. ثم ما استتبع ذلك من اهتمام حكام المماليك بذلك الديوان، وبتأمينهم المصادر المتعددة لِتمويله. وهذا ما سيتم تناوله في البحث.

ديوان البريد

على الرغم من أنّ ديوان البريد في سلطنة المماليك، هو ديوان مترابط يجمع بين قسميه المصري والشامي، فإن البحث سيقوم بالتركيز على القسم الشامي،

وهو الأكبر والأهم، والذي يشكّل في ذاته ديواناً متكاملاً، وذلك بهدف إبراز الدور الحضاري الذي اضطلع به خلال فترة حكم المماليك للبلاد الشامية. لكن قبل ذلك، ولكي تتضح صورة بُنية ديوان البريد بالشام ومراكزه المنتشرة هناك، ينبغي إعطاء القارئ لمحة سريعة عن التقسيمات الإداريّة المملوكيّة للشام؛ نظراً للارتباط الوثيق بينها وبين بنية الديوان ومراكزه المنتشرة بالشام. فلقد قسّم المماليك بلاد الشام إدارياً إلى ست نيابات أساسية كبار، هي: دمشق، وحلب، وطرابلس، وحماة، وصفد، والكرك. وتتمتّع كلّ نيابة منها باستقلال ذاتي من الناحية الإداريّة، مع ارتباطٍ فيما بينها وبين حاضرة السلطنة بالقاهرة من خلال السلطان المملوكي. وبدورها قُسّمت كلّ نيابة من هذه النيابات الكبار إلى نيابات صغار وولايات[19]. وكان بكل حاضرة من حواضر النيابات الست الأساسية ديوان للبريد؛ يتكامل مع غيره من الدواوين في النيابات الأخرى، ويتمم عملها، لتشكل جميعها – من الناحية العملية – ديواناً واحداً.

1 – أنواع البريد

عرف ديوان البريد المملوكي بالشام ثلاثة أنواع من البريد، هي: البريد البري من خلال مراكز خيل البريد، والبريد الطائر من خلال أبراج الحمام الرسائلي، والمناور أو مواقيد النار من خلال مواضعَ أُقيمت ابتداءً من الشمال والشمال الشرقي لبلاد الشام، وحتى جنوبه مع الديار المصريّة.

أ – مراكز خيل البريد: هي الأماكن التي يقف بها البريديّة لتغيير خيولهم وللراحة والتزود بالماء والطعام، إذا اقتضى الأمر. واعتمد المماليك في اختيارهم لهذه المراكز اعتبارات عمليّة، ولم يعتمدوا المبدأ النظري الذي قدّره علماء المسالك والممالك، ومن ثم لم يجعلوها ذات أبعاد ثابتة لكن متفاوتة، وترتبط بصورة مباشرة بقوّة احتمال الحصان المتوسّطة، وكذلك بالقرب من الماء أو الأُنس بقرية[20]... إلخ. ولقد وضع المماليك بكلّ مركز من هذه المراكز عدداً من الخيول المعدّة للركوب؛ "تُعرف بخيل البريد"، ومعها رجال "يُعرفون بالسّوّاقين[21]".

ربط المماليك مراكز خيل البريد بالبلاد الشاميّة بحاضرة السلطنة عبر خط رئيس يمتد من قلعة القاهرة (قلعة الجبل) حيث دار السلطنة مروراً بقطيا - وهي مركز حدودي على الطريق بين مصر والشام - وصولاً إلى الطريق الساحلي المار بغزّة[22]. وابتداءً من هناك أقام المماليك شبكة من الخطوط البريديّة، المنظّمة تنظيماً جيّداً ودقيقاً.

اتجهت خطوط البريد المتفرّعة من غزّة باتجاه جهات رئيسة ثلاث، هي: حواضر نيابات الكرك، ودمشق، وصفد. وكان كل خط من هذه الخطوط يضم كثيراً من المراكز. ومن حاضرة نيابة دمشق كان هناك خط رئيس باتجاه حاضرتي نيابتي حماة وحلب، كما كان هناك خط آخر باتجاه حاضرة نيابة طرابلس. كذلك ولأجل ربط حاضرة كل نيابة من هذه النيابات بأقسامها الإداريّة - أي نياباتها الصغار وولاياتها - يذكر ابن فضل الله العمري[23] أنّ المماليك نظّموا بكل نيابة شاميّة مجموعة من الخطوط البريديّة التي تربط مقار نيابات الولاية من ولاية إلى أخرى[24]. وهذا يعني أنّ تغطية البريد كانت شاملة لكلّ أنحاء النيابة[25].

يتبيّن مما تقدّم، أنّ المماليك قد ربطوا أنحاء سلطنتهم بالشام بعضها ببعض، كما ربطوها بالديار المصريّة بشبكة منظّمة ودقيقة من مراكز خيل البريد "حتى يتوصّل المسافر على البريد إلى حيث أراد[26]".

ب - أبراج الحمام الرسائلي أو ما يُطلق عليه البريد الطائر أو بطائق الحمام: اهتم المماليك بهذا النوع من البريد اهتماماً زائداً، واتخذه سلاطينهم لحمل المكاتبات المهمّة التي يحتاج الأمر لإيصالها إلى مقاصدها بسرعة، ودون أن تتعرّض للوقوع بيد الأعداء.

وكان هذا النوع من البريد معروفاً عند المسلمين منذ أوائل العصر العبّاسي[27]، ثمّ مع الفاطميين والزنكيين والأيّوبيين، لكنّ المماليك بالغوا بالاهتمام به بحيث جعلوا له مراكز وأبراجاً في مختلف أنحاء الشام وقلاعه، عدا تلك الموجودة بالديار المصريّة[28].

اعتمد هذا النوع من البريد على الرسالة الصغيرة التي يُطلِق عليها أهل مصر زمن المماليك "البطاقة[29]". وكانت البطاقة تُكتب بورق خاص يُعرف بـ "ورق الطير... وتُؤرّخ باليوم والساعة والسنة؛ وإذا كانت مسرّحة إلى السلطان من مكان بعيد يُكتب عليها عنوان لطيف حتى لا يفتحها أحد، وكلُّ والٍ تصل إليه يكتب في ظهرها أنها وصلت إليه" ثم يرسلها حتى تصل مختومة إلى السلطان[30].

كان الحمام الزاجل يحمل البطاقة تحت جناحه لقوّة هذا الجناح ولحفظها من المطر[31]، لكن ما لبث أن رُبطت بالذنب[32]. أمّا من أين يؤتى بهذا الحمام؟ فيذكر القاضي تقي الدين المقريزي أنّ جميعه - وهو كثير جداً - كان يُدَرَّج بقلعة القاهرة، ثم يُنقل إلى أبراج في جميع أنحاء السلطنة بمصر والشام[33].

ارتبطت أبراج الحمام في البلاد الشامية - كحال مراكز خيل البريد - بخط رئيس يبدأ من قلعة الجبل بالقاهرة وينتهي عند غزّة. ومن هذه المدينة تتفرع الخطوط الجوية باتجاه عدّة أنحاء من الشام، كدمشق والخليل ونابلس والقدس وجينين وصفد، وذلك عبر مراكز وأبراج متعددة. كذلك ربط المماليك أبراج الحمام بدمشق بخط رئيس إلى حلب عبر حمص وحماة. كما رُبطت دمشق بطرابلس بخط جوي مماثل عبر مركز "تُربلة[34]" (جبل تربل) حسبما أورده ابن شاهين الظاهري[35]. بالإضافة إلى ذلك كانت حاضرة كل نيابة تُربط بأقسامها الإدارية بخطوط جوية مماثلة يضم كلّ منها عدداً من الأبراج. فمثلاً، في نيابة دمشق عمل المماليك على ربط حاضرتها بخطوط جوية إلى كل من الرحبة (الميادين) وبعلبك وبيروت وصيدا، بالإضافة إلى ما سبق ذكره من ربطها بحمص والخليل ونابلس والقدس[36]، وكلُّها أعمال تتبع نيابة دمشق.

ج - المناور أو مواقيد النار: "هي مواضع رفع النار في الليل، والدخان في النهار"، للإعلام بحركات العدو - وبخاصّة التتار - متى حاولوا مهاجمة سلطنة المماليك عبر حدودها الشرقية والشمالية الشرقية. كذلك استعمل المماليك المناور في صراعهم مع الفرنج، وذلك بربطهم السواحل الشامية بالداخل - وبخاصة مع دمشق - عبر سلسلة من المناور، للإعلام بأي هجوم قد تتعرض له تلك السواحل من قِبَل السفن الفرنجية.

وتكون هذه المناور عادةً "على رؤوس الجبال"، أو "في أبنية عالية"، ومواضعها معروفة من أكثر المسافرين[37].

أمّا لماذا تعد المناور جزءاً من ديوان البريد المملوكي بالشام؟؟ فذلك يعود إلى أنّ الهدف من إقامتها هو نقل الخبر، لذلك يمكن أن تعد شكلاً من أشكال البريد[38]. واستعمال المناور في نقل الخبر عادةٌ أخذها المماليك عمّن سبقهم، وبخاصة الأيوبيون، فلقد استعملها السلطان صلاح الدين الأيوبي[39] للإعلام بخروج العدو، وكان التنوير يتمّ عادة على الآكام للإنذار[40].

تبدأ المناور التي أقامها المماليك مع المغول من أطراف الرحبة، التي تصلها المعلومات من بلدة عانة في العراق، حيث يوجد بها أُناس يساندون سراً السلطات المملوكية. وتتواصل هذه المناور حتى تصل إلى غزّة من خلال أكثر من ثلاثين منوراً، يُنقل بعد ذلك الخبر عبر الحمام الرسائلي أو خيل البريد إلى قلعة الجبل بالقاهرة. ولقد تشعّبت عن هذه المناور أخرى غيرها إلى البلاد التي تقع في الجنوب والشمال أو الشرق والغرب منها[41].

أمّا مع الفرنج، فلقد كان أهم خط من خطوط المناور، هو الخط الذي يربط بيروت بدمشق من خلال سلسلة من المناور، تبدأ من ظاهر بيروت إلى رأس بيروت العتيقة، فجبل بوارش (بوارج)، فجبل يبوس، فجبل الصالحية، فقلعة دمشق[42].

وكان نقل الخبر يتمّ عبر هذه المناور بطريقة سريعة، لدرجة أنّ ما يحصل على الفرات في أقصى شمال الشام كان يعلم به السلطان بالقاهرة في المساء، وما يتجدّد مساءً يعلم به في الصباح[43]. ومن ثم فإنّ المناور كانت تنقل الخبر بصورة أسرع من خيل البريد ومن الحمام الرسائلي.

2 - الجهاز الإداري والوظيفي للمؤسسة

موازاةً مع التنظيم والترتيب الذي تمتعت به مراكز البريد المملوكية بالشام، اهتم المماليك بإعداد الأجهزة الإدارية والموظفين لهذه المؤسسة. ونظراً لأنّ نيابات الشام كانت تتمتع كلٌ منها باستقلال إداري، فإن كل نيابة منها

كان لها ديوان للبريد -كما أُشير سابقاً - به جهاز متكامل من الموظفين يشرف عليه كاتب السر بالنيابة[44]. لكن ذلك لا ينبغي أن يدفع للتفكير بأنّ كلّ جهاز من هذه الأجهزة، ربما قد يعمل بصورة تتناقض مع غيره، فالعكس هو الصحيح؛ إذ كان هناك تنسيق وتعاون كامل بينها لكي يتم تسهيل أمور البريد وتيسرها وتسريع حركته، إرضاءً لما تتطلبه وتركز عليه الإرادة السلطانية باستمرار، وهذا ما سيتم تناوله فيما بعد.

أ - موظفو خيل البريد

تكوّن الجهاز الإداري للبريد البري بكل نيابة شامية إجمالاً من مجموعة من الموظفين العسكريين، مهمّتهم خدمة البريد وتسهيل أموره والنهوض به، وأبرزهم:

- شادّ مراكز البريد الذي يهتم بالتفتيش على دواب البريد بالنيابة، والاهتمام بتأمين علفها، واختيار السوّاس لها "عند رحيلها وقدومها، والاهتمام بمنشآت ومباني البريد"، والتحري باستمرار لدواب البريد عن "أحسن الطرق كي تسير عليها[45]".

- أمير آخور البريد، ومهمته الإشراف على خيول البريد بالنيابة ونواحيها، والتحدث بشأنها وبشأن من يخدمها ويسوقها مدّة سيرها. ويكون لهذا الموظف أيضاً الإشراف على إسطبل البريد وما فيه من سوّاس[46].

- مقدم البريد الذي يشرف على موظفي البريد بالنيابة الموجود بها، والمساواة بينهم في أثناء تكليفهم بالأشغال أو بقضاء المهمات الرسمية المطلوبة منه[47]، وإيصال موظفي البريد إلى مراكزهم، وإبلاغ نائب السلطنة بما يجري في نيابته من أمور هي من اختصاص ديوان البريد[48].

- ناظر مراكز البريد: موظف مدني من السكان المحليين، مهمته مرافقة أمير آخور البريد ومساعدته[49].

- البريدي الذي يحمل الرسائل، سواء أكانت شفهية، أم خطية، إلى الموضع أو الشخص المراد إيصالها إليه.

وبالإضافة إلى هؤلاء الموظفين، كان بكلّ مركز بريد عدّة من "السوّاس"، كما كان به عدد من السوّاقين، يركب أحدهم مع البريدي؛ "ليسوق له فرسه ويخدمه مدة سيره[50]".

ب - موظفو أبراج الحمام الرسائلي والمناور

بالنسبة لبريد الحمام الرسائلي، كان بكل برج من أبراج الحمام رجال متخصصون بتدريجه يسمّون البراجين، ولهم رئيس مقدم عليهم. كذلك كان هناك جماعة من الخدّام "تحت تصرفهم البغال؛ لحمل ما يخص الحمام والبراجين" المهتمين بأمره وبطعامه[51].

وبخصوص موظفي المناور وضع المماليك بكل منارة منها الديادب والنظارة[52]، "لرؤية ما وراءهم وإيراد ما أمامهم"، ولهم على ذلك رواتب معينة[53].

3 - طريقة عمل البريد

يُلمس من خلال تتبع المصادر المملوكية اعتماد المماليك في عمل بريدهم - بعموم دولتهم وفي الشام على وجه الخصوص - طريقةً غاية في الدقة والتنظيم، وذات مقاصد منها: إيصال الخبر أو الرسالة إلى الجهة المقصودة في سهولة وسرعة، وضمان عدم التلاعب بها. فلقد كان بديوان الإنشاء (ديوان كتابة السر) بكلّ نيابة شامية ألواح من فضة، نُقش على إحدى وُجهات كل لوح: "لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون"، وبعدها كُتب: "ضُرب بالشام" إذا كان اللوح من نيابة دمشق، أو "ضُرب بحلب المحروسة" إذا كان من نيابة حلب، وكذلك الأمر بالنسبة لباقي نيابات البلاد الشامية. ونُقش عل الوجه الآخر للّوح اسم السلطان مع اسم والده. وبالإضافة إلى ذلك، كان باللوح ثقب تُعلّق "به شرابة من حرير أصفر ذات بندين، يجعلها البريدي في عنقه، بإدخاله رأسه بين البندين ويصير اللوح أمامه تحت ثيابه، والشرابة خلفه من فوق ثيابه".

وحين يتم تكليف أحد البريدية بنقل البريد، سواء داخل نيابته أم إلى نيابة أخرى، أو حاضرة السلطنة بالقاهرة، كان يُعطى أحد الألواح المذكورة، فيعلّقه في عنقه بحسب ما تمت الإشارة إليه ويذهب إلى مقصده؛ "فكل من رأى تلك الشرابة خلف ظهره علم أنه بريدي"، وبواسطة ذلك يمتثل له رؤساء المراكز "بتسليم خيل البريد. ولا يزال كذلك حتى يذهب ويعود، فيعيد... اللوح" الذي يحمله "إلى ديوان الإنشاء[54]".

وكان البريدي حين يصل إلى سلطان المماليك بالقاهرة، مثلاً يدخله أمير جندار والدوادار (من كبار الأمراء أرباب السيوف) وكاتب السر إلى حضرته، فيُقبِّل الأرض، ثم يأخذ الدوادار الكتاب ليمسحه بوجه البريدي، ثم يناوله للسلطان فيفتحه، ويجلس كاتب السر ليقرأه عليه. وبعد الانتهاء، يأمر السلطان بما يقتضي عمله[55]. وعلى هذا النسق، كانت تلك العملية تتم في نيابات الشام حيث يحل نائب السلطنة محل السلطان.

أما بالنسبة للرسائل التي تنقل عبر البريد الطائر، فلقد كان البراج يحضر الطائر حامل الرسالة إلى السلطان إذا كانت الرسالة مرسلة إلى الديار المصرية، أو إلى نائب السلطنة إذا كانت مرسلة إلى إحدى نيابات الشام، فيقرؤها كاتب السر[56].

4 – دور مؤسسة البريد

أدّى البريد دوراً مهماً جداً في عموم سلطنة المماليك، وبخاصة في البلاد الشامية؛ إذ كان صلة الوصل والاتصال بين نيابات تلك البلاد وبين القاهرة حاضرة السلطنة، وهذا ما دفع ابن فضل الله العمري لوصفه بأنه "جناح الإسلام الذي لا يُحصّ، وطرف قادمته التي لا تُقص"[57].

يذكر القاضي تاج الدين السبكي[58] أنّ "البريدية هم الذين يحملون رسائل الملك وكتبه[59]"، لذلك، وانطلاقاً من هذا المبدأ، عمل البريد بنوعيّه البري والطائر على نقل المراسلات الرسمية للدولة، كما استُعمل في خدمة الدولة وتسهيل جميع الأمور المتعلقة بإدارة شؤونها، وبخاصّة الإدارية والسياسية منها، ومُنع رعايا السلطنة من استعماله لأغراضهم الخاصة. وفي سبيل، ذلك – ولكي

لا ينحرف استعماله عن هذا المبدأ – كان على الذي يُسمح له بركوب دواب البريد أن يحمل أوراقاً خاصة تسمى "أوراق الطريق"، وهي شبيهة بجواز سفر في العصر الحاضر، تعطى له من نائب السلطنة بالنيابة المسافر منها، أو من السلطان بخط كاتب السر أو الدوادار إذا كان المسافر على البريد قادماً من الديار المصرية. ويذكر المُحبي ابن ناظر الجيش[60] أنه كان يُكتب لحامل تلك الأوراق بأن "يُمكّن من التوجه إلى جهة قصده والعودة"، وأن يُحمل على فرس أو أكثر، من مركز إلى آخر، ذهاباً وإياباً – هذا إذا كان عائداً – وأن "يُعامل بالإكرام والاحترام والرعاية الوافرة". كذلك تشتمل الأوراق على طريقة معاملته، وعلى نفقته[61].

وكان البريد في نيابات الشام – وبفضل تنظيمه الدقيق – يتخطّى الحواجز والعقبات ويصل إلى الأماكن النائية بالشام، وحتّى إلى خطوط المواجهة مع العدو، وفي أحلك الظروف. وللدلالة على ذلك، يذكر المؤرخ اليوسفي[62] أنّ البريدي كان يأتي إلى أمراء جيش المماليك، وهم على أبواب مدينة آياس الأرمينيّة في آسيا الصغرى، في أثناء حصارهم لها[63].

كذلك لم يكن للأحداث والفتن التي كانت تحصل في بلاد الشام ومصر، سوى تأثير محدود أحياناً على حركة البريد ونشاطه بحيث لا يلبث هذا التأثير أن يزول بانتهائها[64]. وفي أحيان أخرى، وعلى الرغم من تلك الأحداث والفتن، يبقى البريد يعمل بفاعليّة؛ ناقلاً الأخبار عمّا يدور في الشام من أمور وحوادث إلى دار السلطنة بالقاهرة. وهذا ما أكّده المؤرّخ ابن الصيرفي[65] عند سردِه للأحدث التي أدّت لعودة السلطان برقوق[66] لتسلّمه العرش سنة 792هـ/ 1389 – 1390م، بعد أن كان قد أُطيح به بانقلاب عسكري[67].

استُعمل البريد بأنواعه الثلاثة في عموم سلطنة المماليك وفي نيابات الشام على الخصوص، وسيلة اتصال وربط بين السلطان ونوّابه بالممالك الشاميّة؛ إذ كان هؤلاء النوّاب يطالعون السلطان بما يجد عندهم أحياناً على أيدي البريديّة، وأحياناً أخرى عبر بريد الحمام الرسائلي[68]. بالإضافة إلى ذلك، فلقد كُلّف ديوان البريد بمهام أخرى متعدّدة.

برز عمل البريد البري بشكل خاص على الصعيد الإداري والسياسي؛ إذ استُعمل لنقل موفدي السلطان إلى الشام وذلك لتنفيذ بعض المهام التي كُلّفوا بها: كتسفير نائب من حاضرة السلطنة بالقاهرة إلى إحدى نيابات الشام[69]، أو لتسليم نائب زمام الحكم في إحدى النيابات أو نقله من نيابة شامية إلى أخرى[70]، أو لتنفيذ مهمة رسمية كُلّف أحد الأمراء بتنفيذها[71]... إلخ.

أيضاً أُوكلت لخيل البريد مهام نقل الموظفين بين نيابات الشام، وبينها وبين الديار المصرية[72]، أو ضمن النيابة الواحدة[73]. كما كُلّف موظفوه بمهمة تحليف القرى والضياع خارج حاضرة النيابة على الطاعة والولاء لدى تسلّم سلطان جديد للحكم[74]. كذلك استُخدم خيل البريد لنقل المبعدين والمنفيين إلى الشام[75]، ولحمل رُسل ملوك البلدان المجاورة القادمين لمقابلة السلطان[76]، أو من يلتجئ إلى سلطنة المماليك من أعيان البلاد الأخرى وينحاز إليها[77]... إلخ.

أما البريد الطائر، فلقد أدى دوراً مهماً، وبخاصة في أثناء المعارك، حين تقطع الطرقات ويتعذر معها استخدام البريد البري؛ إذ استعمل الحمام الرسائلي في تأمين الاتصالات بين المناطق وقطاعات الجيش وقلاعه، وفي نقل الأخبار عن سير المعارك. كما استُعمل وسيلة تجسسية لنقل أخبار العدو وتحركاته، وما يعتمده من خطط بالسرعة المطلوبة بغية إفشالها. وخير مثال على ذلك ما قام به البريد الطائر في أثناء الاجتياحات المغولية لبلاد الشام، في السنوات: 680هـ و699هـ و 702هـ[78]/ 1281م و 1300م و 1303م.

كذلك استُعمل بريد الحمام للبشارة بفتح بلد من البلدان[79]، ولنقل المعلومات السريعة في الظروف التي تقتضي سرعةً في إيصال الخبر[80]، وفي نقل المعلومات والتعليمات لدى فرار المتآمرين والخونة[81]. وحين يصل أحد الرسل إلى البلاد الشامية من جهة البلاد الشمالية أو الشرقية، ورغبة منه بمقابلة السلطان المملوكي تُرفع بطاقة سريعة مباشرة إلى قلعة الجبل بالقاهرة حيث مقر السلطان[82]... إلخ.

أما بالنسبة للنوع الثالث أي المناور، فلقد شكّل دورها عاملاً رديفاً، أسهم أحياناً في نقل الخبر بسرعة وفعالية أكثر من النوعين الآخرين. ومن الأمثلة الدالّة على ذلك يشار إلى حادثة وردت في "تاريخ بيروت"، ومفادها أنه لما وصل الفرنج إلى ساحل بيروت في إحدى ليالي جمادى الآخرة سنة 784هـ/ آب 1382م، بادر أهلها – وبغية الإسراع في إيصال الخبر إلى نائب السلطنة بدمشق بيدمر الخوارزمي[83] – بإشعال مواقيد النار عِوضاً عن إعلامه بالبريد البري أو بالبريد الطائر؛ فوصل إليه الخبر عن طريق الإنارة بالتدريج، في تلك الليلة، وحضر إثر ذلك[84].

5 – اهتمام سلاطين المماليك بديوان البريد

نظراً لما قام به ديوان البريد المملوكي بعموم السلطنة، وفي الشام بشكل خاص، من دور مهم في خدمة الدولة وعلى جميع الصعد الإدارية والسياسية والأمنية والعسكرية؛ شدّد سلاطين المماليك من اهتمامهم بذلك الديوان، وفي مقدمة هؤلاء السلطان الظاهر بيبرس البندقداري الذي أنفق في سبيل ترتيب البريد الأموال الطائلة، حتى صار الخبر يصل إلى مركز حُكّمه بقلعة الجبل بالقاهرة "في أربعة أيام ويعود في مثلها"، ومن ثمّ كانت أخبار النيابات تأتيه مرتين في كل جمعة. كما اشترط هذا السلطان على أمراء العربان في أثناء زيارته للشام سنة 661هـ/ 1263م بخدمة البريد وإحضار الخيول اللازمة له[85]. ودلالة على الاهتمام الزائد لبيبرس بأمر البريد يذكر ابن شداد[86] أن هذا السلطان كان إذا ورد إليه البريد "في شيء سواءً أكان مهماً أم غير مهم، كان يعيد الجواب فيه من وقته ولو أتاه وهو على طعامه أو في فراشه[87]". كما يذكر ابن عبد الظاهر[88]، إنه لما قدم البريد من جهة نائب دمشق آقوش النجيبي[89] وعلم السلطان الظاهر وهو يستحم أنه يحمل أخباراً طيبة قام من وقته عريان ليقرأ الكتب الواردة من النائب "وفيها الخبر بفتح البيرة وهزيمة التتار[90]".

وحين تسلّم المنصور قلاوون[91] زمام الحكم في سلطنة المماليك، زاد من اهتمامه بالديوان بحيث، إن البريد وصل في أيامه إلى دمشق "بعد يومين وسبع ساعات من مفارقة قلعة الجبل" وهو أمر لم يُعهد مثله من قبل[92]. وهنا

لا بدّ للمرء أن يتساءل: ألا يُعد ذلك من الأمور المبالغ فيها، ولا سيما أن اجتياز المسافة بين دمشق والقاهرة والبالغة 800 كم لا يتطلب أقل من أسبوع؟ وعن ذلك يجيب سوفاجيه (SAUVAGET): إن مثل تلك الأفعال تبقى مفاخر معزولة وفي حالات طارئة ومدفوعة بما يأمله السوّاقون الحاملون للأخبار السارة من مكافآت[93].

وكان المنصور قلاوون – أيضاً – يشدد باستمرار في وصاياه لولي عهده؛ بالاهتمام بأمر البريد[94]. ولمّا تسلّم ابنه الناصر محمد[95] زمام الحكم تابع اهتمامه الكبير بديوان البريد ولا سيما في الشام، من خلال إرسال مبعوثين من كبار رجال دولته للتفتيش المستمر على أوضاعه، ومعالجة أي خلل قد يطرأ عليه سواء أكان ناجماً عن نقص في عدد الأفراس، أم نتيجةً لاستعمال البريد في أغراض ومنافع خاصة بعيدة عن الهدف المعيّن له وهو خدمة مصالح الدولة، أم غير ذلك. ففي سنة 741هـ/ 1340م ولدى حضور الأمير طاجار[96] من البلاد الشامية عرّف السلطان الناصر أنّ مراكز البريد ينقصها الكثير من الخيول، "وأن البريدي إذا قصد التوجه إلى دمشق" لا يصل إليها "إلّا في خمسة عشر يوماً"، وأن أكثر البريدية يحملون القماش وغيرِها من الأصناف، على سبيل الأُجرة للتجار، كما يسمحون لبعض التجار والعرب بركوب خيل البريد. عندها أصدر السلطان مرسوماً بقطع رواتب مباشري الجهات عن ثلاثة أشهر؛ لكي يشتري بها خيولاً لمراكز البريد، كما أمر "بألّا يركب البريد إلّا من يَأذن له السلطان في ركوبه"، وأن يكون معه كتابٌ يسمح له بذلك، وأن يقوم نائب قطيا بتفتيش البريدية لدى عبورهم إلى الأراضي المصرية ومنعهم من حمل شيء سوى المراسلات الرسمية[97].

تتابع الاهتمام بديوان البريد مع خلفاء الناصر محمد من أولاده وأحفاده، من خلال إصدار مراسيمهم المتتابعة بإلزام أنفسهم وأمراء دولتهم وموقعيها بإمداد الديوان بالخيول اللازمة لها، حين حصول أي نقص أو اختلال في مراكز خيل البريد بطرق البلاد الشامية[98].

ولم يقتصر اهتمام السلاطين بديوان البريد في مصر والشام على دولة المماليك الأتراك، إنما تعداها إلى أوائل عهد دولة المماليك الجراكسة. فالسلطان الظاهر برقوق، اعتنى بأمر البريد، وجهّز لذلك الخيول اللائقة فارضاً على جميع أمراء دولته بمصر تقديم عدد من الخيول، وكلّ بحسب رتبته. ولمّا جُمعت الخيول أمر بإرسالها إلى مراكز البريد بالشام[99]. كذلك - ولأجل تحقيق مزيد من السهولة وسرعة الحركة لخيل البريد، وبغية تأمين سبل مواصلات أيسر وأفضل في البلاد الشامية - عمّر هذا السلطان جسراً على نهر الأردن الذي يسمى جسر الشريعة بين بَيْسان ودمشق فبلغ طوله نحواً من مائة وعشرين ذراعاً وعرضه عشرين ذراعاً[100].

6 - مصادر تمويل ديوان البريد

من خلال تتبّع المصادر المملوكية المهتمة بسرد مجريات الأحداث والتطورات، التي حصلت في أثناء فترة حكم سلطنة المماليك، يلاحَظ أنّ هناك مصدرين أساسيين لتمويل ديوان البريد المملوكي بمصر والشام وهما: أولاً ما يفرضه السلطان المملوكي بين الحين والآخر على أمرائه وأعيان دولته من أفراس لتقوية مراكز البريد. وثانياً ما يُرصد من بلاد كإقطاعات برسم الديوان لتأمين نفقاته واحتياجاته. ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما ذكره المقريزي وعنه نقل ابن تغري بردي[101] من أنّ السلطان المظفر حاجي[102] أمر في سنة 748هـ/ 1348م، وبعد ورود الخبر إليه "باختلال مراكز البريد بطريق الشام" بأن يُقدّم كل أميرٍ من أمراء دولته عدداً من الخيول حُدِّدت له، كما "كشف عن البلاد المُرصدة" لنفقات ديوان البريد، فوجد أنّ ثلاثاً منها قد أُوقفت أو أُقطعت؛ عندها أخرج هذا السلطان من أحد المقطعين بلداً مردودها من الدراهم والغِلة كبير، "وجعلها مرصدة لمراكز البريد[103]".

كذلك يشار إلى مصدر ثالث أسهم في تمويل ديوان البريد بالشام، وهو ما كان يفرضه السلاطين من مكوس (ضرائب) على أهالي النيابات الشامية. فنيابة طرابلس مثلاً كانت تؤدي مُكساً مُعيّناً برسم خيل البريد، واستمر ذلك حتى عهد السلطان الأشرف برسباي[104] الذي أبطله في سنة 826هـ[105]/ 1423م.

خاتمة

يتبين مما سبق، أنّ ديوان البريد المملوكي بالبلاد الشامية شكّل عصب الحياة بالنسبة للكثير من أجهزة الدولة ومؤسساتها بكل نيابة شامية، وبخاصّة الإدارية والسياسية والعسكرية والأمنية، وأسهم إسهاماً فعالاً في التطور الحضاري لتلك النيابات. وما اتصف به ذلك الديوان من سلبيات من حيث اقتصار دوره على المراسلات الرسمية والأعمال الخاصة بالدولة، ومن ثَمّ عدم تمتُّعه بميزات الديوان ذي المنفعة العامة، فإنّ ذلك لم يحدَّ من كونه مَعلماً بارزاً من المعالم الحضارية، التي نعمت بها بلاد الشام في عصر سلاطين المماليك.

لكن قبل الختام وتوخياً للدقة العلمية، ينبغي التنبيه إلى أنّ ديوان البريد المملوكي بالشام،لم يستمر على حاله من الانتظام وحسن الترتيب والسرعة في إيصال الخبر طوال حكم سلطنة المماليك؛ إذ إنه - وبسبب ما تعرضت له البلاد الشامية من اجتياح مغولي في سنة 803هـ/ 1401م على يد تيمورلنك[106] إيلخان المغول - تأثرت بنية الديوان بشكل كبير، "فخرِبت من حينئذ مراكز خيل البريد، واشتغل أهل الدولة بما جرى. . . فعند ذلك اختلّ طريق الشام اختلالاً فاحشاً[107]" .

غير أنّ ذلك لا يعدو كونه إشارة للضرر الكبير الذي لحق بهذا الديوان وليس إلى القضاء عليه نهائياً، بل استمرّ بوتيرة ضعيفة وهزيلة، وفاقداً أحياناً لميزته الأساسيّة في العمل، بوصفه جهازاً منظّماً ومرتباً في اتصاله وترابطه. وجرت بين الحين والآخر من قِبَل بعض السلاطين الجراكسة محاولات لتنشيط البريد في بلاد الشام، على الرغم مما حدث في هذه البلاد من فتن وصراعات.

وختاماً تجدر الإشارة إلى أنّ ديوان البريد المملوكيّ حين خمل وتداعى بعد اجتياح تيمورلنك للشام، سارت سلطنة المماليك تدريجياً في طور الانحطاط والانحلال.

الهوامش والمراجع

(1) الحموي، ياقوت [ت سنة 626هـ/ 1229م]: **معجم البلدان**، ج1/ 35 - 36، بيروت: دار صادر، 1979م، والقلقشندي، أحمد بن علي [ت سنة 821هـ/ 1418م]: **صبح الأعشى في**

صناعة الإنشا، تحقيق: محمد حسين شمس الدين وآخرين، ج14/ 411 – 412، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1987.

(2) الجمل، عبد الرحمن يوسف: **قاموس المصطلحات الإسلاميّة (القسم السياسي)**، ج1/ 97، القاهرة: مطبعة مكتبة الآداب بالجماميز، 1990.

(3) هو القاضي تقي الدين أحمد بن علي القلقشندي الكاتب والأديب وأحد كبار موظّفي ديوان الإنشاء بمصر، توفي في جمادى الآخرة سنة 821هـ/ تموز 1418م. محمد بن عبد الرحمن السخاوي [ت سنة 902هـ/ 1497م]: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، بيروت: دار الجيل، 1992، ج2/ 8).

(4) هو القاضي تقي الدين أحمد بن علي البعلبكي الأصل صاحب التصانيف الكثيرة ومنها: "الخطط" و"السلوك لمعرفة دول الملوك" و"المقفّى الكبير". توفي في رمضان سنة 845هـ/ كانون الثاني 1442م. يوسف بن تغري بردي [ت سنة 874هـ/ 1469 – 1470م]: **المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي**، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة: المؤسسة المصريّة العامّة للكتاب، 1985، ج1/ 415 – 420؛ والسخاوي: **التبر المسبوك في الذيل على السلوك**، دار الكتب المصريّة، ميكروفيلم رقم 2739 تاريخ، قسم التصوير 1960 ص7 – 8).

(5) القلقشندي: **صبح الأعشى** ج14/ 412؛ والمقريزي، :**لمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، بيروت: دار صادر، بدون تاريخ، ج1/ 226.

(6) - J. Sauvaget, la **poste aux chevaux dans l'empire des Mamelouks**, librairie d'amerique et d'orient, Paris 1941,Int. P. 11.

(7) هو أول خلفاء بني أميّة ومؤسس دولتهم، توفي سنة 60هـ/ 680م. (عبد الرحمن السيوطي [ت سنة 911هـ/ 1505م]: **تاريخ الخلفاء**، تحقيق: سعيد عقيل، بيروت: دار الجيل، 2003، ص191 – 200.

(8) العمري، أحمد بن فضل الله [ت سنة 749هـ/ 1348م]: **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1988، ص239 – 242؛ والقلقشندي، صبح الأعشى ج14/ 414 – 415.

(9) هو بيبرس التركي البندقداري الصالحي النجمي سلطان الديار المصريّة والبلاد الشاميّة والأقطار الحجازية المتوفى في محرم سنة 676هـ/ حزيران 1277م. (محمد بن الفرات [ت سنة 807هـ/ 1404م]: **تاريخ الدول والملوك المعروف بتاريخ ابن الفرات**، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت: المطبعة الأميركانيّة، 1942، مج7/ 81 – 92).

(10) - Sauvaget, la poste p. 11.

(11) عاشور، سعيد: **الظاهر بيبرس**، القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، 1966، ص138.

(12) هو القاضي الكبير عبد الوهاب بن فضل الله العمري كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء بمصر والشام المتوفى في رمضان سنة 717هـ/ تشرين الثاني 1317م. (خليل بن أيبك الصفدي [ت

سنة 764هـ/ 1363م]: **أعيان العصر وأعوان النصر**، تحقيق: فالح أحمد البكور، بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1998، ج2/ 1051 – 1056).

(13) التعريف بمصطلح الشريف، ص 242؛ صبح الأعشى، ج14/ 415.

(14) هو نزار بن المعز لدين الله معد العبيدي المتوفى سنة 386هـ/ 996م. (محمد بن أحمد الذهبي [ت سنة 748هـ/ 1347م]، دول الإسلام، تحقيق: حسن إسماعيل مروة، بيروت: دار صادر، 1999، ج1/ 346).

(15) هو أبو الفرج يعقوب بن كلس، اتصل بكافور الإخشيدي ثم تركه وانتقل لخدمة الفاطميين. توفي سنة 380هـ/ 990م. (الذهبي، دول الإسلام ج1/ 341).

(16) الخطط، ج2/ 7.

(17) صبح الأعشى، ج14/ 415.

(18) - Sauvaget, la poste p. 11-12.

(19) عن التقسيمات الإداريّة للبلاد الشاميّة يُراجع: **التنظيم الإداري لبلاد الشام في عهد المماليك**، أطروحة أعدّت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية في التاريخ، إعداد ماهر عبد الغني فرخ، إشراف د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت: الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، 2005، ص117 – 171.

(20) التعريف بمصطلح الشريف، ص239؛ وبح الأعشى، ج14/ 418.

(21) الحنفي، محمد بن أحمد بن إياس [ت سنة 930هـ/ 1524م]: **نزهة الأمم في العجائب والحِكَم**، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1995، ص218.

(22) صبح الأعشى، ج14/ 48.

(23) هو القاضي شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري كاتب السر بديار مصر والشام المتوفى في ذي الحجة سنة 749هـ/ شباط 1349م. (الصفدي، أعيان العصر ج1/ 250 – 260).

(24) التعريف بمصطلح الشريف، ص253.

(25) تُراجع خطوط خيل البريد بالشام عند: التعريف بمصطلح الشريف 247 – 253؛ صبح الأعشى ج14/ 424 – 430.

(26) التعريف بمصطلح الشريف، ص251.

(27) الظاهر بيبرس، ص140.

(28) الخطط، ج2/ 231.

(29) الصيرفي، علي بن داوود [ت سنة 900هـ/ 1495م]: **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، تحقيق: حسن حبشي، ج1/ 309، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1970.

(30) الخطط ج2/ 231 – 232.

(31) السيوطي: **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ج2/ 313، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، 1968.

(32) الخطط، ج2/ 211 و 231.

(33) الخطط، ج2/ 231.

(34) الظاهري، خليل بن شاهين [ت سنة 873هـ/ 1468م]: **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، اعتنى بتصحيحه بولس روايس، باريس: المطبعة الجمهورية، 1894، ص117.

(35) هو الأمير غرس الدين خليل بن شاهين الصفوي الظاهري؛ ولي وزارة مصر ووظائف أخرى غيرها. توفي في جمادى الأولى سنة 873هـ/ كانون أول 1468م. (السخاوي، الضوء اللامع ج3/ 195 – 197).

(36) يُراجع للمزيد من التفاصيل عن خطوط الحمام وأبراجه: التعريف بمصطلح الشريف، ص254 – 255؛ والقلقشندي ج14/ 438 – 439.

(37) التعريف بمصطلح الشريف، ص259.

(38) - M. Gaudfroy-demombynes, La **Syrie à l'époque des Mamelouks d'après les auteurs arabes**, Librairie orientaliste, Paris 1923, Int. P. CX III.

(39) هو يوسف بن أيوب بن شاذي صاحب مصر والشام والجزيرة وغيرها المتوفى في صفر سنة 589هـ/ شباط 1193م. غريغوريوس الملطي المعروف بابن العبري [ت سنة 685هـ/ 1286م]، **تاريخ مختصر الدول**، تصحيح وفهرسة الأب أنطوان صالحاني اليسوعي، بيروت: دار الرائد اللبناني، 1983م، ص388؛ وأحمد بن علي الحريري [ت بعد شوال سنة 926هـ/ 1520م]، **الإعلام والتبيين في خروج الفرنج الملاعين من بلاد المسلمين**، تحقيق: مهدي أحمد، الإسكندرية: دار الدعوة، 1984م، ص42 – 44.

(40) يُراجع: الفتح بن علي البنداري [ت سنة 642هـ/ 1244م]، **سنا البرق الشامي**، تحقيق: رمضان ششن، بيروت: دار الكتاب الجديد، 1971م، ج1/ 318.

(41) يُراجع للمزيد من التفاصيل عن هذه المناور: التعريف بمصطلح الشريف، ص 259 – 261؛ صبح الأعشى، ج14/ 445 – 447.

(42) يُراجع: صالح بن يحيى [ت سنة 840هـ/ 1436م]، تاريخ بيروت، تحقيق: فرنسيس هورس اليسوعي وكمال الصليبي، بيروت: دار المشرق (المطبعة الكاثوليكية)، 1969، ص35 المتن وحاشية 5و6.

(43) التعريف بمصطلح الشريف، ص 259.

(44) يذكر القلقشندي أن كاتب السر هو "المتولي لأمر البريد وتنفيذ أموره في الإيراد والإصدار". (صبح الأعشى، ج14/ 416).

(45) صبح الأعشى، ج12/ 303.

(46) صبح الأعشى، ج4/ 194؛ ومحمد قنديل البقلي: **التعريف بمصطلحات صبح الأعشى**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1983، ص47.

(47) صبح الأعشى، ج4/ 194 وج12/ 433.

(48) طه ثلجي الطراونة، **مملكة صفد في عهد المماليك**، بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1982، ص243.

(49) صبح الأعشى، ج4/ 198.

(50) الخطط، ج1/ 227.

(51) زبدة كشف الممالك، ص 117؛ التعريف بمصطلحات ،ص 109 – 110.

(52) الديدبان "لفظ فارسي أصله ديده بان ومعناه حارس أو رقيب". والديادب والنظارة أناس مهمتهم "رصد العدو ورؤيته". (مصطفى عبد الكريم الخطيب، **معجم المصطلحات والألقاب التاريخية**، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1996، ص188 – 189؛ والبقلي، التعريف بمصطلحات ص140).

(53) التعريف بمصطلح الشريف، ص 259.

(54) يُراجع للمزيد من التفاصيل: القلقشندي، صبح الأعشى ج14/ 416 – 417.

(55) ابن فضل الله، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**: دولة المماليك الأولى، تحقيق: دوروتيا كرافولسكي، بيروت: المركز الإسلامي للبحوث، 1986، ص105 – 106.

(56) الخطط، ج2/ 211.

(57) التعريف بمصطلح الشريف، ص242.

(58) هو عبد الوهاب بن علي السبكي، تولى القضاء بدمشق والخطابة بجامعها الأموي. توفي في ذي الحجة سنة 771هـ/ تموز 1370م. (أحمد بن حجر العسقلاني [ت سنة 852هـ/ 1448م]: **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، بيروت: دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ج2/ 425 – 428).

(59) السبكي: **معيد النعم ومبيد النقم (الإصلاح السياسي والإداري في الدولة العربية الإسلامية)**، بيروت: دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، 1985، ص32.

(60) هو القاضي تقي الدين عبد الرحمن بن محمد الحلبي الأصل ناظر الجيوش المملوكية المتوفى في جمادى الأولى سنة 786هـ/ حزيران 1384م. ابن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تعليق وتقديم: محمد حسين شمس الدين، بيروت: دار الكتب العلمية، 1992، ج11/ 247).

(61) يُراجع لمزيد من التفاصيل: عبد الرحمن المحبي ابن ناظر الجيش: **تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف**، رسالة ماجستير، إعداد الطالب عبد الرحمن أمين صادق، إشراف عبد المقصود محمد نصار، جامعة الأزهر، كلية اللغة العربية، قسم التاريخ والحضارة 1979، ص 188 – 189 و191.

(62) هو عماد الدين موسى بن محمد بن يحيى اليوسفي المصري المعروف بابن الشيخ يحيى أحد مقدّمي الحلقة بالقاهرة المتوفى سنة 759هـ/ 1358م. (ابن حجر، الدرر ج4/ 381).

(63) اليوسفي موسى: **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**، تحقيق: أحمد حطيط، بيروت: عالم الكتب، 1986، ص383.

(64) من ذلك مثلاً انقطاع البريد عن الشام نحواً من عشرين يوماً بسبب الانشغال بمرض السلطان الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون والذي أدّى إلى وفاته سنة 746هـ/ 1345م. (أبو بكر بن قاضي شهبة [ت سنة 851هـ/ 1448م]: **تاريخ ابن قاضي شهبة**، تحقيق: عدنان درويش، دمشق: المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربيّة، 1994، مج2 ج1/ 447).

(65) هو نور الدين علي بن داود الجوهري الحنفي ويعرف بابن داود وبابن الصيرفي المتوفى في شوال سنة 900هـ/ حزيران 1495م. (السخاوي، الضوء اللامع ج5/ 217 – 219).

(66) هو الظاهر برقوق بن آنص العثماني مؤسس دولة المماليك الجراكسة، توفي في شوال سنة 801هـ/ حزيران 1399م. (ابن تغري بردي، مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، دمشق: مكتبة الأسد، ميكروفيلم رقم 3395، رقم المصغّر الفيلمي 7781، ص185 – 187).

(67) يُراجع عن حركة البريد في أثناء هذه الأحداث: نزهة النفوس، ج1/ 298 و301 – 306.

(68) الخطط، ج2/ 211.

(69) يُراجع على سبيل المثال إرسال السلطان الناصر محمد بن قلاوون لمبعوثه الأمير طاجار الدوادار، كمسفرٍ للأمير طشتمر البدري، الذي عينه السلطان في نيابة صفد، عوضاً عن نائبها المتوفى أيتمش المحمدي، وذلك في محرم سنة 737هـ/ آب 1336م. (المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1971 – 1972، ج2ق2/ 406 – 407).

(70) من الأمثلة على ذلك إرسال السلطان الظاهر برقوق في سنة 800هـ/ 1398م لمبعوثه الأمير أشبك الخزندار على البريد، لتقليد الأمير أرغون شاه الإبراهيمي نائب طرابلس بنيابة حلب. (ابن قاضي شهبة مج1ج3/ 648).

(71) من ذلك مثلاً توجه الأمير الوزير بالديار المصرية مغلطاي الجمالي ومكين الدين بن قرونية مستوفي الدولة بها، على البريد لكشف البلاد الشامية وروك البلاد الحلبية في جمادى الآخرة سنة 725هـ/ أيار 1325م. (المقريزي، السلوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، بيروت: دار الكتب العلمية، 1997، ج3/ 82).

(72) يُراجع مثلاً انتقال قاضي حلب كمال الدين محمد بن الزملكاني على البريد إلى مصر في شعبان سنة 727هـ/ تموز 1327م، كي يلبسه السلطان التقليد بقضاء دمشق، ومن ثم عودته، لكنه توفي وهو في الطريق عند بلبيس. (عمر بن مظفر [ت سنة 749هـ/ 1348م]: **تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي**، بيروت: دار الكتب العلمية، 1996، ج2/ 273).

(73) من الأمثلة على ذلك تكليف نائب السلطنة بدمشق الأمير بيدمر الخوارزمي، للأمير شهاب

الدين أحمد التنوخي بركوب خيل البريد، والتوجه إلى قرية عين زحلتا من شوف صيدا، للكشف هناك عن نوع من الأشجار نافع لعمل النشاب. (ابن يحيى، تاريخ بيروت ص 190).

(74) من ذلك مثلاً تكليف نائب دمشق في محرم سنة 667هـ/ حزيران 1277م لمتولي البريد بها بتحليف أهل القرى والضياع بالنيابة لطاعة السلطان الملك السعيد ابن الظاهر بيبرس، وذلك بعد تنصيبه خلفاً لوالده. (أحمد بن عبد الوهاب النويري [ت سنة 733هـ/ 1333م]: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: محمد عبد الهادي شعيرة، مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة: مركز تحقيق: التراث، 1990، ج30/ 370).

(75) من الأمثلة على ذلك تسفير السلطان الناصر محمد بن قلاوون لعبد الله بن قاضي القضاة جلال الدين القزويني، على البريد من مصر إلى الشام، منفياً في سنة 731هـ/ 1331م، وذلك بسبب شكوى كبار رجال الدولة من كثرة طيشه، واستمراره في ذلك على الرغم من نهي السلطان المستمر له. السلوك، ج2 ق2/ 336 – 337.

(76) يُراجع مثلاً وصول رسل ملوك المغول سنة 700هـ/ 1301م إلى دمشق، ثم سفرهم إلى الأبواب السلطانية على البريد. (عبد الله بن أيبك الدواداري [ت سنة 733هـ/ 1333م]: **كنز الدرر وجامع الغرر "الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر"**، تحقيق: هانس روبرت رويمر، القاهرة: 1960، ص52).

(77) من ذلك لجوء الأمير التتري سلامش لسلطنة المماليك، وانتقاله من دمشق إلى القاهرة سنة 698هـ/ 1299م، على خيل البريد لمقابلة السلطان الناصر محمد بن قلاوون. (الدر الفاخر، ص11).

(78) عن هذه الأدوار التي قامت بها بطائق الحمام في أثناء تلك الهجمات والاجتياحات يُراجع: محمود العيني [ت سنة 855هـ/ 1451م]، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 1987، ج2/ 281وج4/ 32 و242.

(79) يُراجع مثلاً إرسال الحمام الطائر للبشارة بفتح مدينة سيس الأرمنية، وذلك في ذي القعدة سنة 776هـ/ نيسان 1375م. (السلوك، تحقيق: سعيد عاشور، القاهرة: دار الكتب المصرية، 1970 – 1971، ج3ق1/ 237).

(80) يُراجع دور بريد الحمام في سرعة نقل خبر ثورة النصيرية سنة 717هـ/ 1317م لنائب طرابلس، ومن ثم للسلطان الناصر محمد بن قلاوون، لعمل ما يلزم لمواجهتها، واتخاذ الإجراءات الضرورية بشأنها. (محمد ابن بطوطة [ت سنة 779هـ/ 1377م]: **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسماة برحلة ابن بطوطة**، بيروت: دار المشرق العربي، بدون تاريخ، ج1/ 60).

(81) من ذلك إرسال بطائق الحمام في سنة 680هـ/ 1281م، إلى مختلف أنحاء البلاد، إثر فرار بعض الأمراء الذين تآمروا على المنصور قلاوون. (ابن أيبك، **كنز الدرر "الدرة الذكية في أخبار الدولة التركية"**، تحقيق: أولرخ هارمان، القاهرة 1971، ص240 – 241).

(82) صبح الأعشى، ج8/ 63.

(83) هو الأمير سيف الدين بيدمر بن عبد الله الخوارزمي، تولى من النيابات الشامية حلب ثم دمشق. توفي في صفر سنة 789هـ/ آذار 1387م. (الدرر الكامنة، ج1/ 513 – 514).

(84) تاريخ بيروت، ص32.

(85) المقريزي، السلوك، ج1 ق2/ 446 – 447؛ وابن إياس، **المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور**، مطابع الشعب، القاهرة 1960، ص89؛ ونزهة الأمم ص 218. وضمن هذا الإطار يذكر المؤرخ ابن شداد أنه وبعد ترتيب بيبرس للبريد أصبح البريدي يقطع المسافة بين دمشق والقاهرة في ثلاثة أيام ويدخلها في الرابع وكذلك من الكرك، ومن حلب في خمسة أيام ويصلها في السادس. . . (يُراجع لمزيد من التفاصيل: محمد ابن شداد [ت سنة 684هـ/ 1285م]، **تاريخ الملك الظاهر**، باعتناء أحمد حطيط، فيسبادن: دار النشر فرانز شتانر، 1983، ص313).

(86) هو المؤرخ والأديب عز الدين محمد بن إبراهيم بن علي الأنصاري الحلبي المتوفى في صفر سنة 684هـ/ نيسان 1285م. (الذهبي، **العبر في خبر من غبر**، تحقيق: صلاح الدين المنجد، الكويت: مطبعة حكومة الكويت 1984، ج5/ 349).

(87) تاريخ الملك الظاهر، ص313.

(88) هو الصاحب محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر كاتب الإنشاء بالديار المصرية المتوفى في رجب سنة 692هـ/ حزيران 1293م. (فضل الله الصقاعي [ت سنة 726هـ/ 1326م]، **تالي كتاب وفيات الأعيان**، تحقيق: جاكلين سوبلة، دمشق 1974، ص118 – 121).

(89) هو الأمير جمال الدين آقوش بن عبد الله النجيبي الصالحي أستادار الصالح نجم الدين أيوب المتوفى في ربيع الآخر سنة 677هـ/ أيلول 1278م. (المنهل الصافي، ج3/ 24 – 25).

(90) عبد الله بن عبد الظاهر [ت سنة 692هـ/ 1293م]: **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، الرياض: 1976، ص223 – 229.

(91) هو سيف الدين قلاوون التركي الصالحي النجمي المتوفى في ذي القعدة سنة 689هـ/ تشرين الثاني 1290م. (الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء محمد عدنان البخيت ومحمد الحباري، دار النشر فرانز شتاينر، شتوتكارت 1993، ج24/ 267).

(92) محمد بن خليل [ت سنة 888هـ/ 1483م]: **دول الإسلام الشريفة البهية**، تحقيق: صبحي لبيب وأولريش هارمان، بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع، 1997، ص41 – 42.

(93) - Sauvaget, la poste p. 35-36.

(94) وليّ عهده هو علاء الدين علي الذي توفي في سلطنة والده. (يُراجع عن ذلك: شافع بن علي [ت سنة 730هـ/ 1330م]: **الفضل المأثور من سيرة الملك المنصور**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، بيروت: المكتبة العصرية، 1998، ص120 و132 – 133).

(95) هو محمد بن قلاوون الألفي، حكم سلطنة المماليك أكثر من أربعين سنة لكن على ثلاث فترات منفصلة. توفي في ذي الحجة سنة 741هـ/ أيار 1341م. (محمد بن رافع السلامي [ت

سنة 774هـ/ 1372م]، **الوفيات**، تحقيق: صالح مهدي عباس، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1982، ج1/ 388 – 391).

(96) هو الأمير سيف الدين طاجار الدوادار المارداني الناصري المتوفى قتلاً بالإسكندرية في سنة 742هـ/ 1341م. (أعيان العصر ج2/ 823 – 824).

(97) مفضل بن أبي الفضايل [ت سنة 759هـ/ 1358م]، **النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد**، الفترة ما بين 717هـ/ 1317م و 741هـ/ 1340م عن المخطوطة رقم 4525، المكتبة الوطنية بباريس تحت رقم: FRBNF 35304659، ص 95و98؛ السلوك، ج2 ق2/ 516.

(98) يُراجع عن ذلك: السلوك، ج2 ق3/ 656 و728؛ النجوم، ج10/ 126.

(99) ابن قاضي شهبة مج1 ج3/ 544؛ وابن حجر، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة: لجنة إحياء التراث الإسلامي، 1969، ج1/ 490.

(100) ابن الفرات، **تاريخ الدول والملوك**، تحقيق: قسطنطين زريق، بيروت: 1936، مج9 ج1/ 86؛ وابن قاضي شهبة مج4ج4/ 39.

(101) هو أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي اليشبغاوي الظاهري الحنفي، ألّف المصنفات العديدة في التاريخ. توفي في ذي الحجة سنة 874هـ/ حزيران 1470م. (السخاوي، الضوء اللامع ج10/ 305 – 308).

(102) هو زين الدين حاجي المعروف بأمير حاج بن الناصر محمد بن قلاوون. قتل في رمضان سنة 748هـ/ كانون أول 1347م. (إسماعيل بن كثير [ت سنة 774هـ/ 1372م]، **البداية والنهاية في التاريخ**، بيروت: دار الفكر، 1986، ج14/ 219 – 224).

(103) السلوك، ج2ق3/ 728؛ النجوم، ج10/ 126.

(104) هو برسباي بن عبد الله الدقماقي الظاهري الذي فتح المماليك في أيامه جزيرة قبرص. توفي في ذي الحجة سنة 841هـ/ أيار 1438م. (المقريزي، السلوك، ج4 ق3/ 1065 – 1066؛ وابن تغري بردي، مورد اللطافة – ميكروفيلم – ص200 – 201).

(105) عمر تدمري، **تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور "عصر دولة المماليك"**، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1981، ج2/ 413.

(106) هو تيمورلنك بن ططرخان الجقطاي سلطان التتار، وكان أعرج وهو "اللنك" في لغتهم فعرف بتمر اللنك ثم ضعّف فقيل تيمورلنك. توفي في شعبان سنة 807هـ/ شباط 1405م. (السلوك ج4ق1/ 26؛ وابن قاضي شهبة ج4ق4/ 428 – 442).

(107) نزهة الأمم، ص219.

* * *

ملحق رقم (1)
خطوط البريد المملوكي ومراكزه في وسط وجنوبي الشام

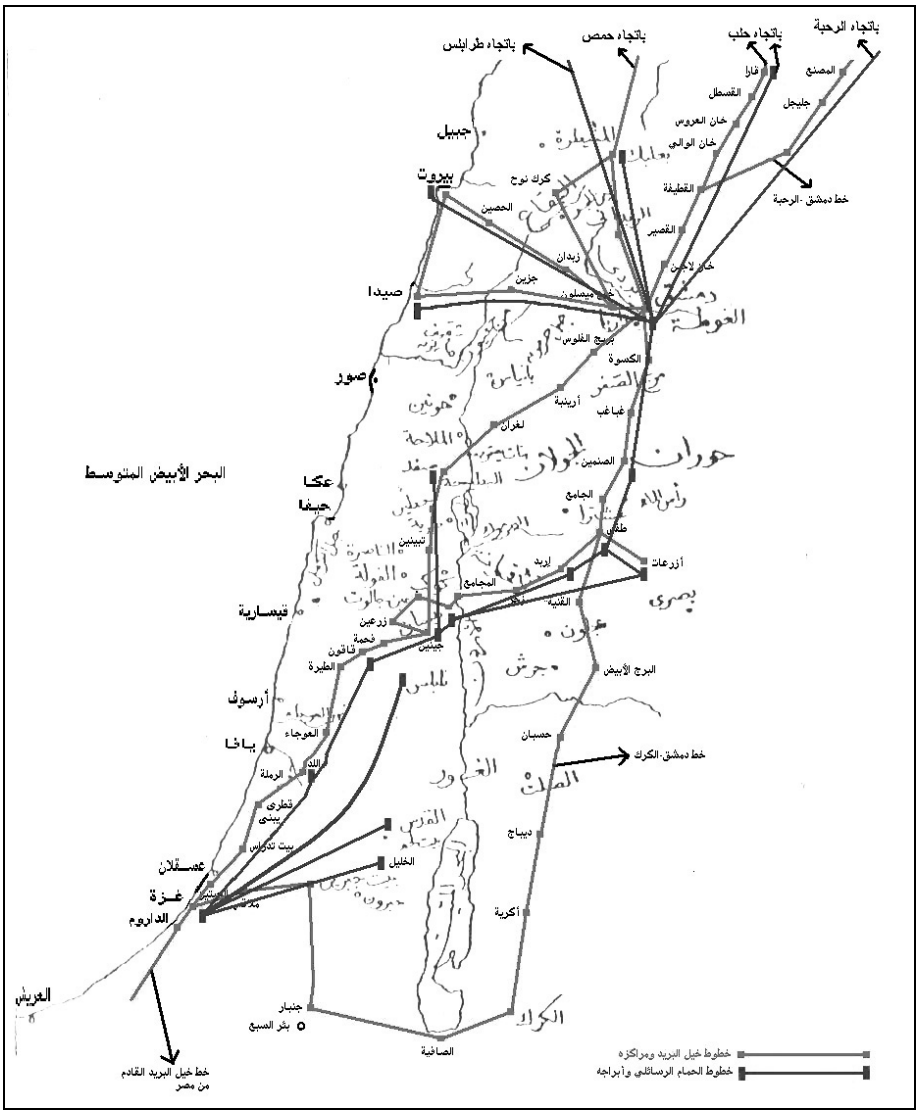

ملحق رقم (2)
خطوط البريد المملوكي ومراكزه في شمالي الشام

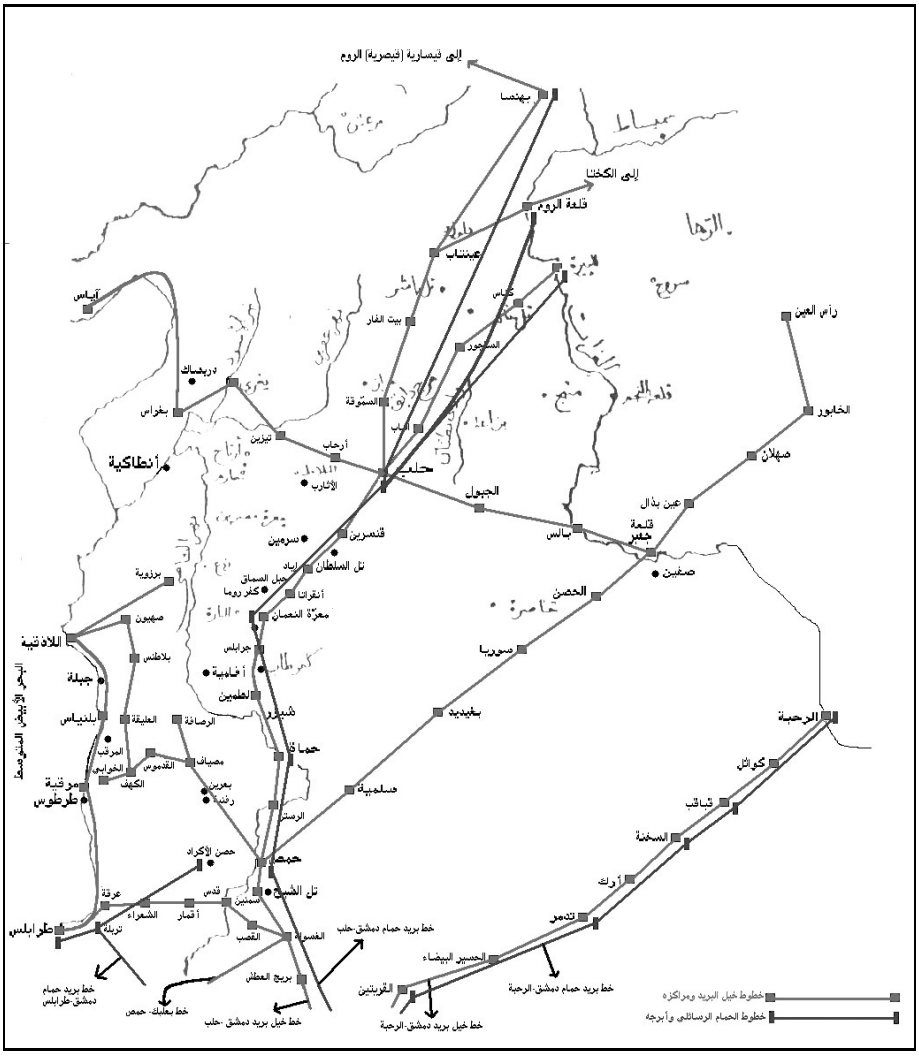

arab journal for the humanities
230
Issue 25/100

Mameluke Mail Divan in The Sham countries

Maher A. Farkh

This article includes a preface treating the word "Barid" grammatically and geographically and its historical evaluation till the Mameluke regime. It concerns all motives that have pushed the Mameluke to take care and finance this Mail Divan especially in Sham Countries.

Then, this article presents all types, centers, lines, mailmen, and tasks is Sham countries. Thereafter, it shows the divan way of working, its importance in transferring all official correspondence of the State in serving and facilitating all its affairs, with a detailed explanation of its various functions and different types.

❊ ❊ ❊